Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.27, Issue: 2020

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد السابع والعشرون، 2020م.

تجليات المقاومة في أدب الطفل الفلسطيني
(أعمال محمود شقير نموذجا)

د. عزت ملا ابراهيمي
أستاذة جامعة طهران
زهراء فاضلي
طالبة الماجستير بجامعة طهران

Abstract

In the course of the literature of resistance, since the war battles on the land of Palestine took place, especially during the outbreak of the heinous catastrophe in 1948, and the occupation of Palestine by the brutal Zionist entity, many children's writers have recruited to stoke and reinforce the spirit of resistance and cultivate the love of the homeland and venerate it and go into the arenas of jihad peacefully , To defend his menstruation from the violations and violent colors they are exposed to. From this standpoint, the axis of the resistance occupied the first rank in the corner of writing the literature of the child committed to his people who were defeated. Whoever reads what books, children and songs have been written to children since the dawn of history and literature, especially the stories of the writer Mahmoud Shukair who witnessed the tragedy from an early age and his life is still

associated with that tragedy, he finds a flood that reveals the human and national contents and his stances regarding the Palestinian cause. In his writings, he is keen on developing the spirit of sympathy and fraternity between the monotheistic religions to build a single homeland, whatever their religions and nationalities, and calls for defeating the might of the invading Zionist entity peacefully, not exposing them to the oppression and abuse of the occupying forces, which robbed their childhood of children. On the basis of the descriptive-analytical approach, this article seeks to monitor the most prominent manifestations of resistance in children's literature, in particular in the stories of Mahmoud Shukair and what the writer relied on in revealing his position on this issue. On the basis of the descriptive-analytical approach, this article seeks to monitor the most prominent manifestations of resistance in children's literature, in particular in the stories of Mahmoud Shukair and what the writer relied on in revealing his position on this issue. We see the writer in this way using expressive means such as symbols and hidden pictures to achieve his goals in his desired path. To paint a human painting that polishes the hearts of children with affection and the need to develop their awareness and urge them to love the country and reject occupation and adhere to the land. In this context, the writer took writing as an inflammatory means and a deadly weapon against the occupation. Working on employing various symbols and suggestions for its ability to direct ideas and consolidate the semantic and artistic vision that serves the Palestinian cause, emerges and reveals bright patterns of this sublime spirit.

Keywords: Children's literature, resistance, Palestine, Mahmoud Shqair, the short story.

1.المقدمة

لا مراء في القول، أنه ليس بالوسع تحديد مضامين أدب الأطفال، لكننا نستطيع أن نجد إطاراً عاماً فضفاضاً كأن نقول: «أننا نصور للطفل الحياة الإنسانية ونعبّر له عنها بما يتلاءم وقدراته، بحيث نساعده على النمو السوي.»(1) فالقصة على وجه التحديد تمثل جوانب التنشئة المتكاملة للطفل في العصر الحديث، بما تقدمه وسائل التنشئة من دعم عقلي ووجداني، ولما لها من تأثير على شخصية الأطفال في مراحل نموهم المختلفة.(2) وتثير دوافع المعرفة بالنسبة لقضايا الشعب، عن طريق إقحام الطفل في قضايا مازال وعيه الغض غير قادر على التعامل معها، خصوصاً حينما يتطرقوا إلى قضايا الموت والفقر والقتل على نحو صارخ مباشر، أو حينما نتعاطى مع القضية الوطنية ومع القضية الفلسطينية والأطفال من ويلات الاحتلال الإسرائيلي.(3) فالقصة في خزانة أدب الأطفال، تقوي إيمانه بأهدافه وتوجهه توجيهاً يجعله يفخر بذلك الوطن وتخليصه، ويسهم في توفير أسباب السعادة في الحياة فيه، ولا يتردد في الدفاع عنه عند الحاجة.(4)

ولعل ما يميز قصة الطفل الفلسطيني، أنها تتناغم مع الواقع المأسآوي المعاش. ومن هذا المنطلق يكتسي الأدب فاعليةً وتأثيراً أقوى في عقد أواصر الالتحام مع الشعب والأمة، بغية إيجاد حاضنة فنية تدور منظوماتها على الخريطة الأدبية، وتسجّل صفحات رائعة في الكفاح والمقاومة، مقارنةً لما يعانيه الطفل الفلسطيني من كبتٍ وتقتيلٍ ومحاولاتٍ لطمس هويته. فلذلك جاء هذا اللون من الأدب حاملاً حزمة من مصطلحات المقاومة. يحرّضهم على التمسك بالأرض والاعتزاز بالبطولة والدفاع عن حرمة الوطن مقابل العدو المحتل. وهذا ما أنشده الأدباء في أعمالهم، لاسيما محمود شقير الذي يعدّ من سلسلة الأدباء الذين أزاحوا الستار عن كاهلهم وتحرروا من القيود التي لم تكن بمستوى الحدث في صعيد قصصهم النضالية، التي وظف فيها قسطاً لا يستهان به من الرموز والدلالات،

للتعبير عن قضاياه الوطنية. بحيث تتجلى جاهرةً في نصه القصصي، على الرغم من إلمامه بالآثار الموبقة التي سيخلفها الخوض في الحديث عنها بطريقة مباشرة. فأدب الأطفال عند محمود شقير، ينطوي على فضاء فسيح حافل بالأبعاد الإنسانية الرحبة. يسعى من خلاله للنهوض بشخصية الطفل وفتح الآفاق القاتمة أمام بصره وغرس القيم والمبادئ السامية التي تحقق الوعي لديه في القضايا المحيطة به. وتتبلور هذه المهمة في المضامين التي تطرق إليها في أعماله القصصية «لأن الكتابة إلى الطفل تحتاج إلى بساطة الفكرة وأن تكون ذات مغزى، وهدف تربوي، وأن تكون المعاني الحسية يدركها الطفل، ويحدد النقاد ثلاث وجهات لأدب الأطفال؛ فهو أدب قيمي أخلاقي، وتربوي، وترويحي.»(5)

لعلّ من المناسب في هذا الصدد أن نفصح عن قول الأديب محمود شقير وتجربته النابعة عن طبيعة الوضع الذي يحياه الشعب الفلسطيني. حيث يقول: «لقد انصبّ اهتمامي إلى حد كبير، وأنا أكتب قصصاً قصيرة ومسرحيات للأطفال، على الهم الوطني. كنت معنياً بجذب الأطفال إلى حب الوطن، وإلى التعلق بالأرض، وإلى رفض سلطة العدو المحتل للوطن والأرض. وقد ألهمتني انتفاضات الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال، والأذى الذي يتعرض له أطفال فلسطين، كتابة قصص ترصد مشاعر الأطفال لدى رؤيتهم لجنود الاحتلال وهم يقمعون مظاهرات الاحتجاج السلمية أو يفرضون منع التجوال على المواطنين الأبرياء. وكتبت قصصاً عن أطفال حقيقيين استشهدوا على أيدي جنود الاحتلال. كتبت هذه القصص محاولاً ما أمكن تجنب المباشرة الصارخة، وكنت معنياً بأن تصل الفكرة إلى الأطفال دون شعارات أو خطب بليغة.»(6)

1–2: أسئلة البحث

الهدف وراء هذا المقال، الإجابة عن عدة أسئلة مطروحة وهي:

1. في تشذيب جذور أدب الطفل والإفصاح عن أنماطه وأشكاله في أروقة العصور، ما مدى فاعليته وعلاقته الوثيقة بالقضية الفلسطينية؟

2. ما هي الغاية والسبب وراء توظيف الرموز والدلالات التي تهدف تأجيج روح المقاومة السلمية عند الطفل الفلسطيني؟ وهل ساهم في تحفيز النضال ضد المحتل وتبيان بشاعة ممارساته القمعية أم لا؟
3. ما هي وجهة نظر محمود شقير حول مشاركة الأطفال في المقاومة ضد الاحتلال؟ هل يحبّذ مشاركة هؤلاء الأطفال في شتى أشكال المقاومة؟ أو يرجّح أن يعيش الأطفال طفولتهم ويلعبوا ويمرحوا ويتعلموا في المدارس؟

1-3: خلفية البحث

بادي ذي بدء قد لا نجافي الحقيقة، بأن الدراسات التي تتمحور حول أدب الطفل والمقاومة ضمن خزائن الأدب سواءً أكان شعراً أو نثراً، غير قليلة على صعيد الكتابة ومستوى التحقيق الفني. إلّا أن موضوع "تجليات المقاومة في أدب الطفل الفلسطيني وفي أعمال محمود شقير"، لم يحظ بدراسة الباحثين ولم يدخل إلى حيّز التداول في البحوث المستفيضة. أما إذا أردنا أن نأتي بنماذج تناولت أدب الكاتب محمود شقير فيمكننا أن نذكر:

-دراسة تحولات القصة القصيرة في تجربة محمود شقير للكاتب الأردني مُحَمَّد عبيدالله، تم نشرها بدار الأزمنة في عمان عام ٢٠١٩. وكما يتضح من سيميوطيقية العنوان أن الباحث يرصد القصة القصيرة وتبيان توسع أنواع المجال الفني وتطورها الرؤيوي الفكري، وقراءة تجارب السرد لدى محمود شقير، واجتيازه إلى حقول ملونة، عبر الأزمنة والحقب. مستهدياً بأحكام القصة القصيرة وعلاقتها الوطيدة بالمرجع الفلسطيني والسياق التحريري الوطني. وتميزت هذه الدراسة بغيرها من الدراسات بتصوير المقاومة الفلسطينية في فصل واحد يعبق عنوانه "الفدائي أو المسيح الفلسطيني وقصص المقاومة ومواجهة القمع".

-دراسة الشكل والمضمون في رواية الفتيان في قصص محمود شقير للباحث الأردني علي حسين عبيدالله العزازمة، نوقشت حزيران ٢٠١٩ بجامعة

فيلادلفيا. وحريّ بالذكر أن إيلاء اهتمام الباحث في هذه الدراسة يتمثل في إلقاء الأضواء كاشفةً على أدب الفتيان والفروق الأساسية بين أدب الفتيان وأدب الأطفال. وعلى هذا المنحى تطرق إلى تبيين ملامح البنية السردية والخصائص الفنية عند محمود شقير، كالحدث، والشخصيات، والزمان والمكان، والبناء السردي، والحوار واللغة والأسلوب وما إلى ذلك.

-مقال سداسية محمود شقير للأطفال والبعد التربوي للكاتب الفلسطيني جميل السلحوت. تم نشره في موقع محمود شقير الإلكتروني، نافذة الآراء النقدية، في صفحة الحوار المتمدن عام 2018. تناول فيها الأبعاد التربوية والتعليمية في رصد ست قصص أطفال للأديب محمود شقير، وما تحتويه من شذرات بوارق تزيح الستار عن انحياز الكاتب بقضايا أمته، ودعوة الأطفال بالتمسك بالقيم التربوية السامية كمثل برّ الوالدين، والحفاظ على البيئة والتمسك بالأرض وحب الوطن وتربية الأطفال على المساواة وعدم التمييز بين البنات والأولاد.

-مقال محمود شقير والقصة القصيرة للناقد الفلسطيني الكبير عادل الأسطة. تم نشره في موقع محمود شقير الإلكتروني، في نافذة الآراء النقدية عام 2014. تطرق فيها إلى تجربة محمود شقير وعدّه من الجيل الثاني، أي في سلسلة غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم. وهذا الجيل تلا جيل خليل بيبرس وسيف الدين الإيراني ونجات صدقي، الذين أسسوا هذا الفن من خلال الترجمة والتأليف.

عطفاً على ما تقدم، فالنقطة اللافتة للإنتباه التي نحن بصدد الخوض فيها في هذه المقالة هي "تجليات المقاومة في أدب الطفل وفي آثار محمود شقير" بصفة خاصة، التي لم يهتم بها الباحثون سابقاً وما قاموا بتسليط الأضواء عليها.

2. تشظي جذور أدب الأطفال

أدب الأطفال يعدّ من أرسخ الأركان في بنية الفكر العربي الذي لاحت بوادره في الأحقاب الضاربه من القدم وعلى هذا المنطلق اجتاز الفلوت ليبحث

عن موضع له في واحة الأدب وغدا يتبلور في عالمنا ويأخذ دوره الحقيقي في عام 1922م في ضوء منهج الأدب الأوروبي.

إن أزحنا الغبار الذي يعلوا كنوزنا ومعالم حضاراتنا وسرنا في خطى التنقيب والكشف عن جذور وركائز هذا المجال من الأدب، سيماط اللثام عن الحقائق المذكورة في النص الصريح للقرآن. وسنصل إلى يقين تام بأن أدب الطفل أدبٌ إسلامي وليس هناک ثمة دين في سجل الكتب السماوية يحمل بين دفتيه أهمية بالغة للطفولة ويعطيها حقها كما اهتم بها الإسلام، الذي بدأ الطواف بالحديث عن كل ما يمتّ بتربيتهم وتثقيفهم لكنّه لم يحظ بدراسة الأدباء والباحثين الأوائل ولم يعرف أدب الأطفال السمات التي عرف بها الغرب إلا في العصر الحديث.

ويمكن القول وإن أدب الأطفال هو وليد النهضة الأوروبية، إذ لم يعرف هذا اللون الأدبي قديماً، فعلى الرغم من وجود الكثير من القصص، والحكايات، والنوادر الشعبية، والأناشيد، والأغاني، والأساطير التي يمكننا أن نعتبرها مواد لصناعة أدب الأطفال، إلا أن أدب الأطفال كمصطلح بسماته وخصائصه لم يعرف في العالم المعاصر إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر.(7)

وهكذا طوى الأرض طيا حتى وصل إلى القطاع الغربى، لاسيما في فرنسا التي تعدّ في طليعة الدول الأوروبية في العلوم والثقافة في أواخر القرن السابع عشر. فأطلق عنان أقلام الكثير من الأدباء في كتابة هذا الأدب. وفي أنجلترا التي عنيت كتبها بإزجاء النصح وإرشاد الطفل وتحديد واجباته بأسلوب مباشر وكانت تهتم للتهذيب أكثر من اهتمامها بإيقاظ عقله وإثارة اهتمامه. وظهرت الكتب الدينية وكانت تميل للتخويف والترهيب إضافة للمواعظ والحكم. وكان هذا اللون من الكتب غير مرغوب فيه بل شجبه الفلاسفة. وفي ألمانيا ظهر نوع من الحكايات الخرافية التي حاولوا فيما بعد أن يضمنوها مغزى أخلاقيا وفي إيطاليا أيضا كانت الكتب مصبوغة بتفاصيل أسطورية ولكنها تقتني بعلاقه وثيقة بالواقع

وأما أمريكا فقد اجتنوا أدباؤها وروادها من حدائق أدب البلدان الأخرى شعره ونثره أنضر الأزهار دون أن يبذلوا جهدا في إبداعها.(8)

فلا غرو أن أوروبا هيمنت على كنوز الشعوب الأخرى قاطبةً تأخذ تراثها وتحتل علومها وفنونها وآدابها وتخرجها بثوب يتلاءم مع أوروبا الحديثة وتسرق جهود كوكبة لا يستهان بها في صعيد البلدان العربية، ويثبت في صفحات التاريخ بأنها استولدت أدب الأطفال كغيره من العلوم وأحدثت نهضة أدبية.(9)

نلاحظ هذا الأمر بجلاء في رواق عصرنا، بأن فلسطين ظلت ترزح تحت نير الاستعمار الأوروبي من سنة 1948م إلى يومنا الراهن. وتحاول التخلص من الاحتلال الصهيوني. فمن هذا المنطلق، أضحت المقاومة من أهم محاورها القصصية والشعرية و«صارت موضوعاً مستقلاً ظهرت من خلالها فنون مستحدثة كأدب الطفل، أدب الرحلة والنزوح وأدب اللجوء. إذن تتمحور معظم الأشعار والقصص حول التضحية وإباء الضيم والتحرير والبطولة والشهادة.»(10) وغدا هذا الشعب العربي كالطود رمزاً للبطولات يروي لنا سجل تاريخه، بسالتهم في الذود عن وطنهم الأم ضد تعسف الكيان الصهيوني الغازي وما قام به من مؤامرات وممارسات إجرامية تجاه الشعب المضطهد. فبات أبناء الشعب يسقون زنبقه الحريه في سفوح الجبال، فالأطفال خاصة احتلوا الجانب الأكثر إشراقا في الكفاح عن الشعب المغصوب على أمره. لابدّ من التصدي لهم في الصفحات اللاحقة.كل ما سبق ذكره كان عرضا موجزا لهيمنة الغرب سواءً على تراث الشعوب أو على أراضيها وعلى هذا المنطلق سنتطرق هنا إلى إلقاء الضوء على أدب الطفل الفلسطيني في القرن العشرين.

3. أدب الطفل الفلسطيني

تبدو الصورة زاهية إلى حدّ ما، أن المجتمع الفلسطيني مجتمعٌ يرزح تحت الاحتلال وهذا يعود لأحقاب ضاربة في القدم، في العهد العثماني أولاً والانتداب

البريطاني. ثانياً وتلك الأسباب التاريخية دعت إلى تأخر نشأة هذا الحقل من الأدب في الملكوت الأدبي.

فأدب الطفل على النحو الذي نعرفه انحدر من تخوم أوروبا وتسلسل على صعيد الأدب العربي عبر المثقفين الذين درسوا في أوروبا وتعرفوا على شتى الأجناس الأدبيه المستحدثه التي ظهر في ضوئها انتاج غزير في مختلف الميادين كالشعر الحر وفنون القصة القصيرة والرواية. وفي هذا المنحى تقول الكاتبة والشاعرة الفلسطينية سلافة الحجاوي: «بفعل ذلک التواصل تبلورت على الصعيد العربي عملية إحياء التراث الأدبي والشعبي العربي وشكلت حكايات ألف ليلة وليلة وحي ابن يقظان وسيف بن ذي يزن وغيره بعض المصادر التي تم استعمالها لتأسيس أدب الطفل العربي.»(11)

نستشفي مما سبق أن أدب الطفل العربي نشأ معتمداً على التأليف والترجمة والاقتباس عن التراث الأجنبى.(12)

ومما أرسى دعائم الكتابة في أدب الطفوله استطلاع الكتاب على المخزون الفكري الصهيوني الذي يطفح بالعنصرية والكراهية والتحريض ضد الفلسطينيين والعرب باعتبارهم غير أخلاقيين وخداعين. يتبع بين طيّاته عملية تضليل ينضوي تحت رايتها نتائج في منتهى الخطورة على تعزيز تلك الأفكار السامة في أذهان الأطفال الأبرياء. كل تلك الأسباب ألفت حافزا بدأبٍ لا مثيل له على التهافت لنطاق أدب الأطفال. وصيّرتهم كالحصن المنيع إزاء كل الإجراءات التعسفيه في غرس العنصريه والعرقيه ومايعرف بالفاشستيه.

في معرض الحديث عن العنف في القصص الإسرائيلية الموجهة للأطفال كيف رسمت صورة الإنسان العربي في أذهان الطفل الإسرائيلي فهو سارق للقمر الذي ينشر الضوء والانتعاش والسكينة في النفوس وهو الذي جعل أرض إسرائيل مظلمة وهو قاتل الأمير الإسرائيلي الصغير والعدو الذي يمنع الآباء من النوم إلى جانب أطفالهم وزوجاتهم ويحرم الأطفال من حنان آبائهم وبالتالي فهو العدو الذي

يجب كراهيته وقتله والتخلص منه كي يزول الخوف وينتشر الضياء والأمن والسلام والفرح في أرض إسرائيل.(13) ولعل أكثر ما يمثل شعور الإسرائيليين نحو العرب، هو موقف "بن جوريون" الشديد التعصب والكراهية لكل ما يتصل بالعرب، فهذا الموقف الذي يمكن اعتبار الإنسان العربي فيه، "المواطن الإسرائيلي الأول"، فهو الأب الروحي لإسرائيل، والأب المادي أيضاً. الذي هاجر إلى فلسطين من بولندا سنة 1906م فهو بذلك أقدم زعماء إسرائيل.(14)

ومن دفة إلى دفة كانت هناك بعض المبادرات الروائيه تستقطب جماهير الأطفال في فلسطين قبل نكبة 1948م وفي أعقاب تلك الكارثة وتحت وطأة الاجتياح الإسرائيلي استولدت تلك الظروف الشاذة والنادرة أدباء بارزين في أرض الرسالات السماوية، أصبحوا مصدر وحي لجيل كامل وارتادوا ميدان الكفاح عن شعبهم بسلاح القلم. في طليعتهم محاولة الأديب مُحَمَّد إسعاف النشاشيبي الذي أصدر كتاب "البستان" وهذا الكتاب يحمل بين دفتيه أناشيدا للصغار واليافعين وعلى هذا السياق ظهرت إصدارات خاصة بالأطفال منها حكايات إسحاق موسى الحسيني مؤلف "مذكرات دجاجة" و"الكلب الوفي" وغيرها.

ويثبت في صفحات التاريخ بأن الإرهاصات الأولى لأدب الطفل العربى، بدأت مع مطلع القرن العشرين.(15) ورافق ظهورها شعراء وكتاب عديدون لا نزال نقف أمام مئات الأسماء في الوطن العربي على كرّ السنين والأعوام.

ولنجتزئ القول عمن استهل هذا الأدب وتطور هذا اللون من الأدب على يديه حتى أصبح فناً من فنون الأدب العربي: مُحَمَّد الهراوي وكامل الكيلاني في العقد الثالث من القرن العشرين فكتب مُحَمَّد الهراوي "سمير الأطفال" للبنين عام 1922م، ثم أتبعه بسمير الأطفال للبنات، ما بين عامي 1922– 1923م، وأغاني الأطفال ما بين عامي 1924– 1928م، ومن قصصه: "جحا والأطفال"، و"بائع الفطير".(16)

وعلى ضوء تلك المحاولات، أخذت بعض المؤسسات والمراكز بالتبلور في السنوات الثلاثين الأخيرة. ساهمت في ظهور نهضة أدبية وعلمية اهتمت بالأطفال اللاجئين الذين يقبعون في المخيمات الفلسطينيه، وبعض تلك المؤسسات وليدة جهود فردية، وهذا الميدان قد أتخم بأسماء سأذكر منها نجلاء نصير التي شكلت فكرة "دار الفتى العربي" وقام بتأسيسها نبيل شعث عام 1974م في بيروت وكان مثار الانتباه في هذه المؤسسة اشتراك عدد كبير من المهتمين في أدب الطفل على صعيد العالم العربي. الذين قاموا بإصدار كتب منقطعة النظير في هذا المجال ونقلوا عن الأدب الأوروبي وهي دار فلسطينية ولكن عمل فيها كوكبة لا يستهان بها من شتى البلدان العربية لاسيما مصر، لبنان و... ولابد في هذا الصدد من الإشارة، أن القرن العشرين يعدّ العصر الذهبي لأدب الأطفال العالمي حيث بدأ الاهتمام بالطفولة على جميع المستويات وتنوعت أشكال التعبير ووسائله من كتب وصحف ومجلات ومكتبات وأدخلت مادة أدب الأطفال إلى بعض الجامعات والمعاهد العلمية وأنشئت مكتبات في أرجاء العالم العربي. هذا كله أسهم في إرساء قواعد أدب الأطفال وتطوره في العالم العربي.(17)

4.التعريف بالأديب المقدسي محمود شقير

كاتب مقدسي يسرد القدس بتفاصيل دقيقة مختصرا تاريخا بأكمله في قصص قصيرة ويوميات قدسية بروح مقدسية، هكذا يعرب الكاتب عن كينونته تلقاء بهاء القدس وعراقتها وتاريخها فلقد أحبها حباً طفح بها قلبه ولهج به لسانه فاغتدى كالهزار الغريد طول حياته ينادي الطيور وهي في وكناتها ويتناثر أعذب الألحان علي مسامعها.

ولد محمود شقير في قرية السواحرة/ جبل المكبر (جوار مدينة القدس) عام 1941م. تلك القرية التي كانت قبيل الاحتلال ماتزال تعيش حياة بدوية ريفية.(18) شهد المأساة الفلسطينية النكبة النكراء عام 1948م وهو لم يعد الثامنة من سني حياته ولا زالت حياته مقترنة بتلك المأساة. ثم التحق بمدارس القرية

وأكمل تعليمه في القدس عند العام 1959م، وعين محمود شقير عام 1959م معلماً في قرية حربثا التي تبعد عن القدس حوالي أربعين كيلومتراً ليمضي فيها أربع سنوات شكلت هذه السنوات التي عاشها في قرية حربثا مع قريته الأولى الوعي القروي الذي ظهر في مجموعته القصصية "خبز الاخرين".(19)

وقد برز ككاتب أولى كثيراً من اهتمامه للكتابة للأطفال فعدّ رائداً مرموقاً لأدب الأطفال العربي في ميدان النثر، وقد هيأت له ظروف عديدة أودعت في نفسه حب القصص كما أنه إضافة إلى سعة إطلاعه وإلمامه بتراث الأدب العربي إطلع على جانب من تراث الأدب الغربي عند إبعاده إلى بيروت ولاسيما الأدب الصهيوني وماهيته فظل يواصل الكتابة للأطفال طيلة سنوات حياته، ليكن درعا حصيناً لأطفال فلسطين تجاه بثهم الأفكار السامة وعجرفتهم وغطرستهم ضد الفلسطينيين وعلي هذا السياق حاول عبر توظيف الترميز والإيحاءات الغير مباشرة أن يجسد ما حل بالبلد من ثورات ونكبات والتعبير عن الأحاسيس والمشاعر المكبوتة والهواجس الدفينة وإزالة الستار عن وجه عدوه الشرس والكشف عن خباثته واضطغانه ضد الشعوب المضطهدة وما قام به من دسائس وممارسات ضد الشعب المسلم.

الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وتجلياته في قصص محمود شقير

كل ما كتب في رواق الأدب العربي شعراً ونثراً،كان يغرف حبره من جرح فلسطين. فالجرح الفلسطيني أورثنا هزائم لا تحصى نكبات، ونكسات، وأوهام انتصارات صغيرة يجدر التطرق إليها في هذ ا المقام. قبل الحديث عن حرب 1948م لابد من الوقوف عند الأحداث التي مرت بها فلسطين قبل 1200 عام، عندما حكمت المسلمون فلسطين وعاشوا فيها مسلمين ومسيحيين ويهود في سلام وكان آخر حكم إسلامي ينضوي تحت راية الحكومة العثمانية وكانت اليهود آنذاك لم تشكل إلا خمسة بالمائة من سكان فلسطين بينما المسلمون بلغت نسبتهم إلى 85 بالمائة ثم يليهم المسيحيون بنسبة عشرة بالمائة «فلقد سكنت

العرب فلسطين قبل جميع الأمم.»(20)

ثم امتدت جذور الاحتلال إلى الانتداب البريطاني عام 1917م، أي أعقاب سماح المندوب البريطاني "هربرت صموئيل" ببيع الأراضي لليهود وهجرتهم إلى فلسطين، وهذه الهجرة هي الباعث الرئيسي في قضية فلسطين، إذ أن معظم المهاجرين كانوا يحملون الفكر الصهيوني القائم على أن أرض فلسطين هي أرض لهم. ثم جرى الانتداب البريطاني على فلسطين من قبل عصبة الأمم في العام 1922م. فنشبت الثورة الإسلامية الكبرى في يافا لتبيث الوضع الإسلامي العربي ذوداً عن حياض فلسطين وأجريت تحركات سياسية لإلغاء وعد بلفور المشؤوم الذي ينص بإنشاء وطن يهودي لليهود في فلسطين واقتحام مسجد الأقصى واحتلال الجانب الغربي عند حائط البراق الذي اعتبروه من مقدساتهم. وعندئذ قامت الثورة العظمى في فلسطين وعلى هذا امتدت الثورات العظمى ضد بطش الانتداب البريطاني حتى أشعلت ألمانيا الحرب العالمية الثانية وأحدق ببريطانيا الخطر.(21) وفي أعقابها جاءت النكبة النكساء عام 1948م، بعدما انسحبت بريطانيا من فلسطين وأعلن الصهاينة إقامة دولة اسرائيلية في أرض فلسطين واندعلت الحروب بين الجيوش العربية واليهود. لكن عدة أمور باءت بهم إلى الفشل في قطف ثمار جهودهم، فانهزم الجيش العربي وانتهت الحرب باحتلال الصهاينة على نسبة 78 بالمائة من أرض فلسطين، فأقيمت دولة الكيان الصهيوني عليها وتقسمت فلسطين إلى ثلاثة مناطق: الضفة الغربية، وقطاع غزة التي ظلت في قبضة العرب حتى عام 1967م وأراضي فلسطين التي احتلتها الحركة الصهيونية الغازية. التي أصبحت بيد اليهود الذين أقاموا عليها دولة لإسرائيل ومن نتاج الحرب، تقسيم القدس إلى قدس شرقية بيد العرب وقدس غربية بيد اليهود وبعد تجرع الفلسطينيين مرارة النكبة وقعت هزيمة الخامس من حزيران عام 1967م التي أعلن فيها الاحتلال الصهيوني سيطرتهم على الجانب الشرقي من القدس وهذه

الهزيمة التي انطوت تحت مسمى النكسة، خلفت استشهاد الآلاف من الفلسطينيين وتهجيرهم من أرضهم الأم.

وفي هذه الأثناء غيرت المقاومة الكثير واقعاً ولغة. وصورة الوطن تغيرت والتراب ارتفع إلى مقام النشيد واللغه توضأت بالدم وصار القلم كما السيف قادراً، على الفعل قادراً على التجرؤ على المخرز وقاموس التبعية والانكسار المستبد. ودور الكاتب أن يغمس قلمه في محبرة السطوع المقاوم في أن يكون أحد جنود الصراع كي يحفظ مستقبل أبناء بلاده من السقوط في البئر فالقلم سلاح فعّال كما البندقية والكاتب بإمكانه أن يجعل من قصصه وسيلة للدفاع عن كرامة وطنه والحفاظ على مقاومة هذا الوطن.(22)

وينبغي أن نشير بأن في رواق عصرنا وضمن مساق المقاومة يوجد كوكبة من الأطفال ساروا في ركاب الدفاع عن وطنهم من شرفة النص المقاوم لا يختصر عالمهم الرحيب من الجهات الست فحسب بل عج قاموسهم بأجنحة متكسرة من أثر الاضطهاد والقتل والسجن في سبيل التمسك بالوطن والولوج في رحاب الصلابة والصمود. والبقاء في جبهة المقاومة أمام فرض الغياب.

بداية لا مفر من الوقوف هنا لتصفح كتاب المقاومة الحافل بألوف الشهداء الصغار الذي تتركز مضامينه على قيم البطولة والفداء والثورة والشهادة، أبدعوا أبطالها قصصا تعبق برائحة الصمود، فهم جاهدوا جهادا بأروع ألوان البطوله والتضحية طوال السنوات. لاسيما عند نشوب نيران انتفاضة 1987م التي أطلق عليها اسم "انتفاضة أطفال الحجارة" ويتلوها اندلا ع انتفاضة الأقصى في الضفة الغربية وقطاع غزة عام 2000 إلى يومنا الراهن، استشهد حوالي 2100 طفلا في سبيل الوطن «إلى أن أخذ الناس يتقبلون استشهاد الأطفال مثل موت الكبار حتى وصل الأمر حد تمني الأطفال الشهادة».(23) سنكتفي بذكر شذرات بوارق منهم:

مُحَمَّد الدرة: لم يتجاوز من العمر سوى 12 عاماً قتل عام 2000 في قطاع غزة وهو معشعش في حضن والده خائفاً من جحيم السماء وفي براءة الصغار يسأل أباه: «لماذا يطلقون الرصاص علينا يا أبي؟». لم تنقذه صيحته الطفولية وهو يحاول مواجهة العدو بلا حجر. احتمى بحِجر أبيه، ظل يشير والده بيده إلى القتلى أن يتوقفوا ويصرخ منادياً، ولكن ليس من مجيب إلى أن رصاصات العدو اخترقت ذراعه اليمنى. ليقول آخر جملة لأبيه: «اطمئن يا أبي فأنا بخير، لاتخف منهم.» ثم بذل مهجته في أحضان أمه كما يقول الشاعر سليمان دغش: «لم يجد أمّا هناك لتحتظنه فعانقته الأرض. إن الأرض أمّك يا مُحَمَّد! فأخذته رصاصة العدو إلى رخام الموت.»

شهيد الفجر مُحَمَّد أبو خضير: لم يبلغ من العمر سوى 16 عاماً، مع بزوغ الفجر تناول سحوره ثم استاذن والديه لأداء الصلاة وغادر قاصداً مسجد شعفاط القريب من بيتهم. وفي مسافة بين باب البيت وباب السماء حلقت روحه الطاهرة بعدما خطفه المستوطنون وقاموا بتعذيبه وحرقه وسكب المواد المشتعلة في فمه وكذلك الأمر مع الطفل الرضيع علي الدوابشة الذي أحرق حيا مع عائلته.

ومع دورات الزمن ورغم الجغرافية الممزقة، نسجت الأطفال لما يتسمون به من براءة وعفوية، حكايات سرمدية صارت على مر العصور أسطورة عظيمة وخالدة للأجيال المتعاقبة، لتترك لهم ثروة ضخمة من حكايات البطولة والفداء، تحفر في عقولهم وقلوبهم الفيّاضة بشتى العواطف، عاطفة المقاومة عن أمهم وتزيد تعليقهم بالأرض والوطن أضعافا متضاعفة ومن النماذج الدالة على هذا المفهوم الاستشهادي لدى الأطفال، ما جاء في مجلة الأمة الفلسطينية في لقاءات أجرتها مع بعض الأطفال الجرحى في انتفاضة الأقصى منها:

1. الطفل مُحَمَّد عدوان: لم يتجاوز من العمر أكثر من تسعة أعوام، وقد أصيب في إحدى المواجهات مع قوات الاحتلال، وبينما كان الطبيب يحاول إيقاف نزيف

الدم المتدفق من جرحه، سأله الطفل مُحَمَّد إلى أين ستاخذونني؟ فقال له: «إلى مستشفى الشفاء لتلقي العلاج» فقال الطفل: «أنا أتيت إلى هنا لأشارك في الدفاع عن الأقصى؛ لكي أستشهد، أرجوكم أعيدوني إلى مكاني لأستمر في المواجهة حتى أستشهد...» فأجهش بالبكاء وهو يقول: «لقد كان حلمي الشهادة، ولم أذهب إلى (نيتساريم) مفترق الشهداء، موقع العدو الصهيوني إلا بحثاً عن الشهادة، و أنا حزين لأني لم أستشهد.»(24)

2. شادي أبو دقة: لم يبلغ من العمر سوى أحد عشر عاماً، وهو الذي قام بإنزال العلم الإسرائيلي عن ساريته فوق الموقع العسكري الصهيوني في (نيتساريم)، يتحدث بحسرة وألم، حينما كان يعالج في المستشفى: «أنا لست سعيداً لأنني كنت أتمنى الشهادة». وتقول والدته: «إنه ودع إخوته قائلاً لهم: أنا ذاهب للشهادة». (25)

كما تجلت صور بطولات الشهداء المقاومين ذوي العزم والصبر والإقدام في قصص الطفل الفلسطيني للكاتب المقدسي محمود شقير، واتخذت أشكالا متنوعة تنطلق من هذه الفكرة، أنّ الشهادة والموت في سبيل الوطن والعقيدة هي الحياة. كما يظهر في الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (26) وهذا ينم عن إعطائهم للطفل دوراً ريادياً. وتبيان الوقفة البطولية لهم في خلق ملحمة خالدة، ترسم لنا صورة للطفل المفعل وليس المنفعل منها. وهذا الالتفات يتساوق مع ما قدمه الطفل الفلسطيني، لهذا يتجلي الطفل في حنايا نسيجه القصصي ملكاً وقائداً يتسيد ناصية الكتابة دون منازع، لما له من دور في بناء وتحرير شعبه في المستقبل. لاسيما أن الكاتب محمود شقير حشد في ثنايا حبكه القصصي من الرموز التي بدورها تدل على إيحاءات ودلالات لتشظي مدلول المقاومة فيها. نمستدها من عالم الصفحات:كمثل الترميز بالزيتون وتوظيف أساليب عدة للمقارعة من أبرزها الفانتازيا والفكاهة والضحك، على لرغم من أنهم يئنون تحت وطأة التعب

ويقبعون في غور عجرفة القوات المحتلة وسيطرتهم علي شعب الفلسطين المحتله، لذلك عده النقاد المحدثين رمزا للمقاومة. حيث أن هذا النمط من القصص يستجلي مكامن الفرح المتبقي بين ركام الاحزان، عندما وجدوا في أنفسهم صراعاً خفياً بين الفرح والحزن، لعل من أبرزها ما يتمثل في قصة "قالت لنا شجرة". ومن الرموز التي قام بتجنيدها الكاتب المقدسي في سردياته، الاستعانة بالتراث الشعبي، كمثل شخصية حسن شاطر في قصة "أنا وجمانة" واستدعاء الشخصيات. علاوةً على ذكر الأطفال الشهداء الذين لم يروا بدا في سبيل تحرير وطنهم من حكم الاستعمار الأوروبي وتحطيم الثغور إلا مصاولة العدو الشرس بكل ما أوتوا من قوة. ومحاولتهم الحثيثة لإنهاء عجرفة العدو الصهيوني وغطرستهم، دون المبالاة لما يتعرضوا له من ألوان عنيفة من الاضطهاد والتنكيل والانتهاكات، معتمدين علي الأخذ بأصول المقاومة السلمية، هذا أيضا يندرج ضمن الرموز التي تنفح الأطفال بشيء من هذا الفيض الفطري الذي تسمو به الحياة. وفي هذا المنحي يحسن بنا أن نشير بأن إجهار التعلق بالأرض والحب العارم لها مع إنها بقبضة عدو قام بالعديد من الممارسات الإجرامية في هذا الصعيد يعد نموذجا للمقاومة. وهناك الكثير من الرموز والإيحاءات التي جثمت علي سرديات محمود شقير لتبيان المقاومة لدي الطفل الفلسطيني، لضيق المقام سنكتفي بذكر قبسات من تلك الرموز بصورة مختزلة ووجيزة منها:

أولا: الشهيد

1-1. صورة الأرض مخضبة بدم الشهيد

في قصة جمال الزين رسم لنا الكاتب محمود شقير بريشته، لوحة فنية في النسيج القصصي تعكس سرادقات جلال الارض وبهاءها بعدما تخضبت بدم الشهداء الأبرار وتزينت برداء أخضر فضفاض، فالأرض كلما كانت خصبة ازدادت إخضرارا وإيناعا والبستان الجميل ليس إلا حصيلة ذلك التمازج بين التربة والبذرة، فدم الطفل الفلسطيني المناضل عندما يسقط على الأرض يتحول إلى

عشب أخضر، يجعل الأرض تضخ بالحياة والعنفوان عند مجابهة القتل والبطش والقنوط. من نافلة القول بأن اللون الأخضر منذ الأزل يجسد رمزا للبعث والحياة والتجدد والعطاء المستمر للأرض وما رحبت. فالدلالة الرمزية لهذا اللون عديدة، لا نروم الخوض فيها وهذا ما جعله تتبوأ على عرش الأدب القصصي الفلسطيني: نظر جمال الزين إلى الأطفال والبيوت والجبال العالية والأشجار الخضراء وقال هذا وطني وسوف أدافع عنه ثم قذف الأعداء بالحجارة أطلق الأعداء النار على جمال الزين وقتلوه فاكتستة الأرض بالعشب الأخضر وصار الوطن الذي أحبه جمال الدين أكثر بهاء.(27)

1-2. الشهيد على لسان الزيتون

عطفاً على ما تقدم في قصص بسالة شهداء البراءة، يستجلي الأمر واضحا بترميز الكاتب وتمويهه على حقائق صارخة كمثل استشهاد الأطفال في انتفاضة الأقصى باعتبارها النواة في تجاوب النص للواقع تجاوبا مذهلاً وما يسعي له الكاتب في سرده القصصي، ربط الأطفال عاطفياً ووجدانياً واجتماعياً بالمجاهدين وتضحياتهم، فإن من اللافت للنظر بأن القارئ يستطيع تلمس ظاهرة الأنسنة بشكل واضح حين أنطق الكاتب الزيتونة وجعل لها أسرة، ثم أضاف لها سمات إنسانية أخرى كقدرتها على الحزن وترسيخ ذكرى الشهيد في ذاكرة الأولاد والبنات كالنقش على الحجر. فالزيتون تلك الشجرة المباركة التي وردت في جميع الكتب السماوية: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾(28) الشجرة التي تقاوم الظروف البيئية الصعبة في مراحل نموها وتكوينها وهي من الرموز التي عني بها أدباء المقاومة الفلسطينية للتعبير عن مقاومتهم ومصاولتهم ضد الاحتلال، فهذه الشجرة المباركة لها أبعاد تاريخية ودينية جعلتها تنطوي على دلالات وإيحاءات كثيرة في التراث الأدبي العربي لاسيما في محور المقاومة.

إن لجوء الأديب القلسطيني في الأرض المحتلة إلى الرمز، لم يكن مقصوداً

لذاته أو لمجرد التجريب أو جرياً وراء التقليد والمحاكاة أو لإثبات قدرته الفنية وإنما جاء تعبيراً عن حاجة وضرورة واقعية، عملت على إيجاده ودفعت الأدباء إلى استخدامه كوسيلة للتعبير عن أفكارهم ورؤاهم وذلک منذ أدرک الاحتلال المقيت دور الأدباء في توعية الجماهير وتنويرهم وتحريضهم، عمل على كبت الحريات وفرض الحصار الثقافي وملاحقة الإحباط والزج بهم في غياهب السجون وتحديد اقامتهم وإبعاد بعضهم خارج الأرض المحتلة وسن القوانين الجائرة التي تحد من عملية الإبداع.(29) والتعبير وخنق حرية التعبير عن طريق إخضاع المقالات والإصدارات للرقابة العسكرية لكن ذلك لم يقف من عزيمة الأدباء ولم يثنهم عن أداء دورهم فوجدوا الرمز تحايلا وتغلبا على الرقابة العسكرية ومتنفسا وطريقة واعية للتعبير تمكنهم من مواصلة إبداعهم الفني والدور المناط بهم حتى أصبح الرمز نوعا من التعامل الفني وتصوير الواقع وتخطي الرقابة.(30) وانطلاقا من هذا فإننا نشاهد أن أدباء فلسطين قد استخدموا الرموز بكثرة لاسيما الرموز النباتية لأنها تحمل مفاهيم مثل الموت والبعث والخصب والبركة والشفاء.(31)

وبهذا المعنى نقرأ للأديب الفلسطيني محمود شقير قصة (فدوى وكلام الزيتون):

اقتربت فدوى ومعَها أولاد وبنات من أشجار الزيتون، وكان هذا الحوار:

الزيتونة الجدة: قتلَ الأعداءُ حبيبَ الأرض، حبيبَ الزيتون. قتلوه في الصباح.

الزيتونة الأم: نعم، اسمُه زياد. في الصباح قتلوه.

الزيتونة الإبنة: في الصباح، رأيت الجندي اللعين يضغط بيده على عنق زياد.

فدوى: لو كنتُ بالقربِ منه لمحوتُ الجنديّ القاتل بالممحاة....

الزيتونة الابنة: نعم، ... لكنهم قتلوه في الصباح، وهو الآن شهيد.

الزيتونة الجدة: يذوب الحزن، ويبقى زياد في قلوب البنات والأولاد.

فدوى: نعم، في قلوبنا أجمعين.

الأولاد والبنات: في قلوبنا أجمعين، في قلوبنا أجمعين.(32)

لا يخلوا من الفائدة إن أشرنا إلى أن الكاتب في هذه القصة القصيرة، يدير حواراً بين الزيتون وأطفال فلسطين، فنلاحظ إن أحاد أوراق الزيتون من أبٍ وأمٍ وجدة تكرم الشهيد وتتنفس الصعداء على قتله وتحيي ذكراه وهكذا يخلق صوراً ناطقة من ملحمة الصمود وتحقيق الذات ويرسم صورة من صور الالتحام بين الشهداء وأرض الفداء، ليصبح أثراً وذكرى للأجيال عبر الحقب. لقد استعار الأديب من عناصر الطبيعة الصامتة عنصرا دائماً ما ينجذب إليه أطفال فلسطين ويخلب ألبابهم، خاصة بعدما شهدوا الاحتلال المقيت وهو يجثوا على أرض فلسطين، وبإضفاء صفات الأنسنة على هذا العنصر الطبيعي الصامت، تم إخراجه من صمته، إذ جعل الكاتب منه (الزيتون) صديقاً للطفل يروي لهم حكايات سرمدية نبتت على جبين الأفق. لقد أوحى الكاتب للأطفال حين أضفى بعض الصفات البشرية على مظاهر الطبيعة هذه، بأنها شبيهة بنا فهي تبكي حزنا لبكاءنا وطوفان الأسى يهدر بصدرها على ما تمرون به من قتل وسجن واضطهاد. وفي قول الزيتونة الجدة :«قتلَ الأعداءُ حبيبَ الأرض» يفصح عن هذه الحقيقة الكامنة أن الأرض كالأم يهيمن حب أبناءها على كيانها وهذا ماتغنى به الشعراء عبر الحقب.

1-3. الشهيد وطيور السماء

قصة "طيور السماء" برمتها ترتبط بحدث تاريخي، كان له أبعاده وتأثيراته على مصير فلسطين. ويستجلي فيها الكاتب مكامن الأحزان عند اغتيال الأطفال واستشهادهم في الضفة الغربية وقطاع غزة ووصف ما حلّ بحياة أطفال فلسطين بعد اتفاقية "أوسلو" واقتحام زهرة المدائن، المسجد الأقصى. وبهذا يتمثل حرص الكاتب على ترسيخ مأسآة شعبه وما تعرض له الإنسان الفلسطيني قبل عدة عقود،كي ترسخ في الذاكرة الجمعية. وفي هذا إشارة أخرى للخلود حيث أن حتى القتل والكبت لا يحيل دونهم ودون التحليق على أعتاب الأقصى وكنيسة

القيامة. «والقارئ لمثل هذه القصة سيجد فيها قيما تربوية وتعليمية، تتمثل في تربية الأطفال بعفوية تامة، فما كان يقوم به مهدي من فعل أو قول، كانت جمانة تقوم به أيضاً.»(33) ويعرب الكاتب أيضاً عن الصور والمفاهيم التي يكونها الناس حول الشهيد تشجيعا للأخرين وقد أبرز القصاص الفلسطيني حقيقة النظرة الطفولية للشهداء:

نظر مهدي نحو السماء، نظرت جمانة نحو السماء وشاهدا سرباً من الطيور يقتربُ منهما ويحط على بلاط الساحة وعلى شجرة الرمان.

قال أحد الطيور: نحن قادمون من أعالي السماء.

قال طائر آخر: نحن أطفال غزة الشهداء.

دُهِشَ مهدي ودُهِشت جمانة وقالت: سلام عليكم أيها الأطفال الأعزاء....

ثم سأل: إلى أين ذاهبون؟

قال الطائر الأول: ذاهبون إلى المسجد الأقصى وإلى كنيسة القيامة.. بعد ذلك نعود إلى أعالي السماء.

سألت جمانة: ألن تذهبوا إلى أهلكم في غزة؟

قال الثاني: سنذهب إليهم، ولكن ليس الآن.

وقال مخاطباً مهدي وجمانة: ليتكما تبلغانهم سلامنا.

قالت جمانة: سنبلغهم سلامكم.

قال مهدي: نعم؛ سنبلغهم سلامكم. وطارت الطيورُ نحو القدس.

لوّح مهدي لها بيده؛ ولوحت جمانة لها بيدها؛ وقالَ الإثنان في وقت واحد: وداعا أيها الأطفال الشهداء، الوداع ثم الوداع. (34)

بهذه الصور الناطقة يتميز الوعي الاستشهادي لدى أطفال فلسطين، الذين آثروا الموت في حياة الشعب، على العيش في ذلّ الوطن، تحقيقاً لمفهوم الحرية والخلود الذي تشربته الأجيال وكبرت وترعرعت على شعائره وطقوسه. فلو لم يعرف هؤلاء الأطفال معنى الشهادة، ولم يدركوها جيداً، لما انطلقوا بحثا عنها

وليس في حوزتهم سوى إيمانهم بالله وإرادتهم القوية وأكفهم الصغيرة المعبأة بالحجارة الصغيرة. فالطفل يتطلع إلى الحرية ويتوق إلى التمتع بها كأى مخلوق آخر وحينما يستطيع المجتمع فهم عالمه والوقوف على رغباته وحاجاته وتطلعاته يكون بذلك قد أعده للإفادة من حريته بصورة صحيحة وبالتالي فإنه من الضرورة بمكان أن يبرز في قصص الأطفال ما يسهم في تطوير هذا الإحساس لتعميق العلاقة بين الطفل والبيت الذي يعيش فيه والأرض التي يلهو بين أحضانها وكذلك الإحساس بالصور الجمالية للوطن وبث روح التضحية والفداء من أجله.(35)

2. استدعاء الشخصيات المناضلة والاستعانة بالتراث

لقد لجأ الشعراء والكتاب إلى حيلتهم الخالدة، استعارة الشخصيات التاريخية المناضلة بالسيف والقلم وتعدد أصواتهم حتى يقذفوا أفكارهم على ألسنتهم وإدانتهم لقوى العسف والطغيان والتنكيل بعد ما عقدوا أواصر بالغة العمق بالتمرد على الواقع الفاسد في العصور الخالية. وهو رمز يبلور التضحيات النبيلة التي بذلها أصحاب الرأي في تأدية رسالتهم ومحاربة السلطة الغاشمة وبعد ما أدرك الكتاب الروح الساريه إزاء صورة الكبرياء العربيه الجريح وما خلفته من آثار موبقة في وجدانهم وهكذا رأى ما تشع به سراديب عيونهم وما تتوهج به من بوارق ملامح النصر أو الانهزام والاستبشار والهموم. اعتمد الكاتب في عصر النهضه امتياح ما يزخر به هذا التراث العريق من كنوز. فالمعطيات التراثيه لها قداسة في نفوس الأمه.

المصادر التراثيه التي يستمد منها الكاتب الشخصيات التراثية والمناضلة، توجد في منطويات كتب التاريخ وتاريخ الأدب وكتب السير. والعوامل الكامنة وراء تبني تلك النماذج الانسانية بنمط يتجاوب مع خلجات معاصريه وجعلت قصصه تستوعب تقنيات مختلفه، كالحوار، تعدد الاصوات والمعادل الموضوعي. يمكن بلورة تلك البواعث في عاملين أساسيين:

أولاً: العوامل الثقافيه وهي تاثير حركة إحياء التراث، والدور الذي قام به رواد هذه الحركة في كشف كنوز التراث وتجليتها، وتوجيه الأنظار إلى ما فيها من قيم فكرية وروحية وفنيه صالحة للبقاء والاستمرار، وقد قام الأدباء بدور جوهري في تحقيق هذا الحضور الدائم للتراث في وجدان الجماهير وعقولهم.(36)

ثانياً: العوامل السياسية الاجتماعية، عندما يشتد الطغيان والقهر السياسي والاجتماعي في أمة من الأمم وفي عصر من العصور، فيكبل حريات الشعب، ويفرض على أصحاب الكلمه من شعراء وكتاب ومفكرين ستاراً رهيباً من الصمت بقوة الحديد والنار، أو بقوة النبذ الاجتماعي. فإن أصحاب الكلمة يلجأون إلى وسائلهم وأدواتهم الفنيه الخاصة التي يستطيعون بواسطتها أن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم بطريقة فنية غير مباشرة، لا تعرضهم لبطش السلطة الغاشمة التي غالبا ما تكون آراء هؤلاء مقاومة لها، وانتقادا لطغيانها، ومن الأساليب التي لجأ إليها أصحاب الكلمه على مدى العصور: الأسطورة، والرمز، وسوق آرائهم وأفكارهم على لسان الحيوان، وغير ذلك من التقنيات الفنية التي تكون ستارا أو قناعا يحتمي به أصحاب الكلمه ويحتجبون وراءه من تنكيل السلطة بهم، ومن مواجهتها مباشرة بآرائهم فيها.(37)

في معرض الحديث عن مدى تحوير الكاتب لتلك الشخصيات، لاسيما في رواية "أنا وجمانة" التي تعدّ من القصص الحافلة باستدعاء الشخصيات التراثيه، سواء في فلك الموروث التاريخي أو الموروث الأدبي. وأول تلك الشخصيات التي استعارها الكاتب من التراث هي شخصية صلاح الدين الأيوبي، حيث أن البطل جواد يقابل صلاح الدين الأيوبي في القدس ويذهب معه في جولة في شوارع القدس ومعالمها. ويلخص شقير ضمن حديثه عن تجربته الإبداعيه بالقول عن هذه الروايه: أنا وجمانه تطرقت فيها لذكر القائد صلاح الدين الأيوبي، الذي حرر القدس من الفرنجه وتدور أحداث الرواية بعد نشوء السلطة الوطنية الفلسطينية في العام 1994م. ثمة فتى في الثانية عشرة، إسمه جواد، يعود هو وأسرته إلى رام الله من

الجزائر. جواد يبدو متذمراً من كثرة الترحال مع والده، الذي أبعثه الإسرائيليون من وطنه بسبب نشاطه الوطني ضد الاحتلال، جواد ينام وهو يحلم بأنه ذهب إلى القدس والتقى فيها القائد صلاح الدين الأيوبي. لذلك، قرر وهو يتذكر حلمه في الصباح، أن يذهب إلى القدس وحده، ويلتقي صلاح الدين هناك. صلاح الدين يكون غير مرئي، فلا يراه صاحب المطعم ولا الجندي الإسرائيلي، ولا البنت الإسرائيليه التي صعدت إلى الحافلة التي ركب فيها جواد وصلاح الدين، في طريقهما إلى عين كارم، لزيارة بيت الجد جد، جواد. البنت تجلس بجوار جواد، أي في حضن صلاح الدين، لأن صلاح الدين غير مرئي، ومن هنا ندرك أن صلاح الدين إنما هو موجود في مخيلة جواد وليس على أرض الواقع. وتحدث المفاجأة حينما ينزل جواد من الحافلة، في المكان الذي نزلت فيه البنت الإسرائيليه. تسأله: إلى أين أنت ذاهب؟ يقول لها: إلى بيت جدي. يشير إلى البيت، فتقول له: هذا بيتنا وأنا أدعوك للدخول إلى بيتنا والبقاء فيه خمس عشرة دقيقة. جواد يؤكد لها من جديد أن هذا البيت بناه جده ثم طرده اليهود منه واستولوا عليه، ومع ذلك فهو يبدي رغبة في دخول البيت للتعرف إليه ولو لفترة قصيرة. يقول لها إنه ليس وحده (هو يقصد صلاح الدين). وهي تتلفت في كل اتجاه ولا ترى أحداً. ثم تخاف أن يكون هنالك شخص مختبئ في الحديقه، ويريد أن يلحق بها أذى، تفتح باب البيت وتدخل وتغلق الباب ولا تعير جواد أي انتباه. بل إن صلاح الدين يخترح على جواد أن يبتعدا لأنها ستتصل بالجيش لكي يحضر في الحال، وسيعتقلهما الجيش بالتاكيد. وهكذا يبتعدان.(38) وبهذا المدلول يستدعي الكاتب شخصية صلاح الدين الأيوبي ليعبر من خلاله أن الهزيمة التي تلقاها في سبيل إرساء دعائم الحق وقضيته النبيله واستشهاد أبطالها إنما هو انتصار الدم على السيف على المدى الطويل من الزمن. تجدر الإشاره بأن توظيف الأدباء لهذه الشخصيات في نسيجهم الشعري أو حبكهم القصصي، في إطار المفارقة التصويرية، بغية إبراز حدة التناقض والشرخ بين الماضي والحاضر وتجسيد المفارقة

بين روح الجهاد والتضحيه التي تضطرم بين أضلاع المجاهد القديم وروح الضعف والانكسار والتقاعس في واقعنا الحالي. وبهذا يضفي الكاتب على هذه الشخصيه، أبعادا حضارية وفنية وسياسية، إلى جانب إضفاء ملامح معاصرة على هذه الشخصية المستدعاة.

وفي توالي السرد القصصي يستعير الكاتب من التراث الشعري، شخصية محمود درويش وبدر شاكر السياب. انطلقت من أعماق الشاعرين الحزينين، شرارة المقاومة. فكلا الشاعرين يمثلان روح المقاومة المفعمة بدوافع الحب والتمسك بالجذور والصلابة. فمحمود درويش هو شاعر الأرض... يتمسك بها، بأعشابها وصخورها وتراثها وترابها إلى أبعد الحدود... وقضية ارتباطه بالأرض تبدو قضية مقدسة عنده... فهو يلح إلحاحاً وجدانياً عميقاً على نغمة التمسك بالأرض ومن هنا استحق أن نسميه «شاعر الأرض المحتلة»(39) وعلى هذا السياق، يوميء الكاتب في البنية الحكائية إلى جناح قلب الطفلين، إلى رؤية محمود درويش عن كثب والتعرف إليه «منذ أن استمعنا أنا وجمانة، إلى أغنية مارسيل خليفة: "أحن إلى خبز أمي" التي كتبها محمود درويش وهو في السجن الإسرائيلي، قبل سنوات طويلة، ونحن نتوق إلى التعرف عليه والتحدث معه عن قرب.»(40)

لقد وظف الكاتب الاقتباس من قصيدة "أنشوده المطر" للشاعر المناضل بدر شاكر السياب، دون أي تحوير في النص التراثي. وقام باستدعاء شخصيته في قصصه، حيث أن في هذه القصيدة "أنشودة المطر" استخدم الشاعر السياب، رمزا شاملا للإنسان العربي، سواءً في انتصاره أو في عذابه وما يتحمله من العنت والعذاب في أداء رسالته. ويصور لنا من خلال شخصية خاتم الأنبياء انطفاء مجد الإنسان العربي، لكنه يعبر في ختام القصيدة عن يقينه التام بانتصار الإنسان العربي.

وذكر محمود شقير ما يندرج تحت هذا النوع من التراث في عالم التلحين والغناء في آثاره، كمثل مارسيل خليفه، الذي يعتبر من أهم الفنانين العرب الملتزمين بقضية فلسطين، ويصف على أوتاره العذبة، صوت الشعب الفلسطيني الجريح، ومن ثم يتغزل بألحانه بحبيبته فلسطين. أولى الكثير من اهتمامه في تلحين قصائد الشاعر الفلسطيني، محمود درويش كمثل قصائد "ريتا والبندقية" و"وعود من العاصمه" وقصيدة "أمي". فالأديب محمود شقير لم يجد غضاضة في تضمين مقطع من هذه القصيدة الرمزية في أحشاء حبكه القصصي، ومقتبسات من شعراء آخرين أيضا. ومن الشخصيات التراثيه التي أعارت اهتماما بالغا بالقضية الفلسطينية وتمحورت مواضيع أغانيها حول تمجيد البطولات والأطفال، وامتازت بتمسكها بالرسالة الإنسانية في مختلف الأوطان، هي المطربة اللبنانية "فيروز" لا سيما في أغنية "زهرة المدائن" و"شوارع القدس القديمة". وبذلك أصبحت رمزاً للمقاومة، بعد ما مثلت أعلى درجات حب الوطن والانتماء، في أغانيها.

وإلى جانب هذه الشخصيات ثمة شخصيات أخرى قام بإبرازها مباشراً ولكنها تمت بصله أو بأخرى إلى هذا النوع وذلك مثل شخصيات الشهداء الذين انتصرت القيم والمبادئ التي بذلوا مهجهم من أجلها، مثل الشخصيه المناضله الجزائريه جميله بوحيرد التي اتخذتها البطلة جمانة كقدوة تحتذي بها في هذا المسير. فالشخصية المناضلة جميله بوحيرد لم يكن يتجاوز عمرها غير سبعة عشرة سنة. فساهمت بشكل مباشر في الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي، وفي منتصف القرن الماضي التحقت بصفوف الفدائيين وترعرعت على حب الوطن وكره سلطة الاستعمار الغاشم.

وفي تلك القصص يرسم لنا الكاتب بريشته لوحة بشرية تعكس مشاركة الأطفال في المقاومه السلميه ضد الاحتلال وكما ذكرنا آنفاً عد الضحك واللعب تحت المطر والتغني بالأبيات الشعريه في أرض كابدت المشاقات وألوان عنيفة من المآسي والاضطهاد، رمزا للمقاومة ويميل في بعض قصصه إلى عنصر الفكاهه

والسخريه والفانتازيا، وفي تشذيب السر الكامن وراء الاعتماد على تلك الأساليب يقول: «إن الكتاب يعمدون إلى معالجات سوداويه تدخل الحزن إلى نفوس الصغار. والمطلوب عدم ادخال الحزن إلى نفوسهم، وعدم تحميلهم ما هو أكبر من قدراتهم. إذاً، يمكن أن نتحدث عن الموضوع بطريقة حذرة، لأن تجربته الغضه في الحياة لا تسمح بتحميله فوق قدرته على الاحتمال»(41) وكذلك يجسد المساواة بين الولد والبنت وإظهارهما معاً من دون تمييز.

نخلص مما سبق إلى أن رواد أدب الطفل، انطلقوا لبيان المضمون الإنساني وتسريب الإنسانيه إلى نفوس الأطفال ويتبدى لنا ذلك في تشظي قصه "أنا وجمانة" يتبلور موقف واضح ضد الصراعات الداخليه بين أبناء الشعب الواحد، التفاهم والانسجام مع أصدقائهم المسيحيين والمسلمين في صداقه حميمة وانشغال البطل جواد وأخته جمانه ومصطفى بترحيل الإسرائيليين من فلسطين إلى أوغندا. إذ أن أحداث هذه الرواية تدور بعد نشوء السلطة الوطنية الفلسطينية.(42) وتسعي إلى مشاركة الأطفال في المقاومه السلمية ضد الاحتلال دون أن يلحق أذى لأحد وهذا يعرب عن ذروة النزعة الإنسانية لدى الكاتب ويصير جماليات السرد في نصه القصصي سيدا علي ناصية الكتابة.

نتيجة المطاف

يمكننا أن نلخص نتائج هذا البحث كما يلي:

1. في تقصي جذور أدب الطفل يتضح جلياً بأنه أدب إسلامي وقد بدأ كأنشودة في العصور الجاهلية، وكانت الأمهات تراقص أطفالها بها. لكنه لم يحظ بدراسة الباحثين الأوائل مثلما حظي باهتمام الغرب به. لذلك عدّه النقاد وليد النهضة الأوروبية.

2. استطاع أدباء المقاومة في فلسطين تحويل المبنى الحكائي إلى لغة رامزة تستمد طاقاتها الإبداعية من تجاوزها الواقع.

3. توظيف شخصية صلاح الدين في القصص الفلسطينية، علاوةً على التضحية وإباء الضيم وعدم الرضوخ للمحتل أتى في إطار إيصال الروح السارية في النضال للمتلقي واستمالته لاقتفاء أثره.

4. استدعاء شخصيات تاريخية مثل صلاح الدين الأيوبي، وشخصيات من التراث الشعري الذي ينبع بروح المقاومة كمحمود درويش وبدر شاكر السياب وما يندرج تحته في عالم التلحين والغناء كمثل مارسيل خليفة وفيروز، وتوظيف صورة من النضال لدى الطفلة "جميلة بوحيرد" و... يعتبر مؤشراً ناصعاً على سعة ثقافة الكاتب وإلمامه ومقدرته البارعة في التعامل مع موروثه سواءً كان موروثاً أدبياً أو تاريخياً.

5. توظيف صورة الشهيد بشتى الألوان والصور. يصبّ في خانة التضحية والثورة والثأر والفداء. وكأنه رمزٌ للحرية والتحرر من براثن المحتلين. لاسيما أن الأرض بعد شهادة جمال الزين (الذي هو رمز للحرية) اكتست بالعشب الأخضر الذي يرمز إلى البعث والأمل والحرية في مقابل الموت والتقتيل والقنوط.

6. ينظر محمود شقير إلى أطفال فلسطين نظرة تكريم، ويمنحهم الأدوار القيادية والريادية في القضاء على العدو. ويدعوهم إلى أن يقتفوا أثر الشهداء، الذين نبذوا أرواحهم الطاهرة في سبيل تحرير الأرض المحتلة. ويذكرهم أن الطريق الأمثل لدحر الاحتلال وبطشه وجبروته هو هذه الحجارة التي ترشقوا بها رؤوس العدو الصهيوني.

7. استطاع أدباء فلسطين أن يحيلوا حزمة المصطلحات التي تشع بروح النضال والمقاومة، إلى رموز تحدٍ ومقاومة للممارسات القمعية عند العدو المحتل.

8. استخدام الزيتون وتوظيف ظاهرة الأنسنة وإعلاء صرح مكانة الشهيد وتخليد ذكراه، جاء في إطار الترميز إلى الالتحام وعراقة الإنسان الفلسطيني في أرضه وتصوير صموده وثباته، رغم محاولات العدو لممارسة ألوان عنيفة من الاضطهاد والتنكيل لطمس هويته وتاريخه.

9. محمود شقير يدعوا في مقاطع غير قليلة إلى الكفاح والمقاومة من أجل طرد العدو المحتل من أرضهم الأم ويعتقد اعتقاداً راسخاً ويؤكد مراراً وتكراراً على الالتزام بمناهج المقاومة السلمية في هذا السبيل، دون إراقة دم أحد منهم.

10. الإكثار من تلوين الحبك القصصي بألوان التكانف والمساواة بين الولد والبنت، وإبراز روح التآخي والصداقة الحميمة بين المسيحيين والمسلمين، وذكر صورة السيد المسيح في كنيسة القيامة، يزيح الغبار عن لوحة بشرية رسمها محمود شقير في قصصه. علاوةً على تبيان ضرورة الإنسجام والتواشج لبناء وطن واحد مهما كانت قومياته ودياناته.

الحواشي والهوامش

1. الهيتي، هادي النعمان، ثقافة الأطفال، القاهرة، عالم المعرفة، 1998م، ص86
2. الحديدي، علي، في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، 1999م، ص 219
3. شقير، محمود، قراءات نقدية في أدب الأطفال، ص37، نظرة على أدب الأطفال في فلسطين، رام الله، 2016م
4. ناصر، إبراهيم، التربية الحديثة، عمان، مكتبة الرائد، الطبعة الأولى، 1994م، ص208
5. مقدادي، موفق رياض، البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع392، الطبعة الأولى، 2012م، ص40
6. شقير، محمود، قراءات نقدية في أدب الأطفال: نظرة على أدب الأطفال في فلسطين، ص17-18
7. ملا إبراهيمي، عزت ومنال فلاح، أدب الطفل الفلسطيني دراسة لأشكاله وأنماطه، طهران، مطبعة جامعة طهران، الطبعة الأولى، 2018م، ص5
8. بريغش، حسن، أدب الأطفال أهدافه وسماته، بيروت، دار الرسالة، الطبعة الثانية، 1996م، ص62- 63
9. هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة، ترجمة: فاروق سعيد بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار العالم العربي، الطبعة الأولى، 1962م، ص11
10. يدالهي فارساني، عباس، "الترميز في الشعر الفلسطيني المقاوم؛ مجموعة العصف المأكول الشعر أنموذجاً"، ص103، مجلة الشتاء، العدد 28، 2017م، صص101-152
11. حجاوي، سلافة، أدب الطفل في فلسطين، ورقة مقدمة في الأسبوع الثقافي الفلسطيني في الجزائر، 2009، الموقع الرسمي للكاتبة: (http://sulafahijjawi. ps/?page_id=234)
12. الهيتي، هادي النعمان، ثقافة الأطفال، ص221
13. سليمان، علي، العنف في الأدب الصهيوني، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010م، ص222
14. النقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، القاهرة، دار الهلال، الطبعة الثانية، 1971م، ص14
15. الهيتي، هادي النعمان، ثقافة الأطفال، ص225
16. القاضي، هوازن، قصص الأطفال في الأردن-دراسة فنية، عمان، دار المأمون، الطبعة الأولى، 2009م، ص69

17. مقدادي، موفق رياض، البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث، الكويت، ص40-41، سلسلة عالم المعرفة، ع392

18. عبيدالله، مُحَمَّد، تحولات القصة القصيرة في تجربة محمود شقير، عمان، دار الأزمنة، الطبعة الأولى، 2019م، ص190

19. البوريني، آيات، صور المرأة في الرواية الفلسطينية، رسالة ماجستير، جامعة بير زيت، 2017م، ص90

20. ياسين، صبحي، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، القاهرة، دار الهنا للطباعة، 1961م، ص10

21. السويدان، طارق، فلسطين التاريخ المصور، الكويت، الإبداع الفكري، 1425هـ. ق، ص230- 234

22. صفي الدين، السيد هاشم وآخرون، الأدب المقاوم رؤى وتطلعات، بيروت، إعداد مركز الإمام الخميني الثقافي، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى، 2005م، ص35

23. استانفورث، شارلوت، أطفال بلا طفولة، عمان، ترجمة مركز جنين للدراسات، 2004م، ص35

24. حسان، حسان عبدالله، "المرأة الفلسطينية ومستقبل الانتفاضة"، ص2، مجلة فلسطين، 2005م، صص 3-19

25. نفس المصدر والصفحة.

26. آل عمران/ 169

27. شقير، محمود، الولد الفلسطيني، القدس، منشورات صلاح الدين، الطبعة الأولى، 1997م، ص41

28. مؤمنون/ 20

29. شحادة، رجاء، قانون المحتل، ترجمة: محمود زايد، جامعة الكويت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990م، ص156

30. النقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص137

31. اليادة، ميرچا، رساله‌اي در تاريخ اديان، ترجمة: جلال ستارى، طهران، سروش، 1993م، ص63

32. شقير، محمود، الولد الفلسطيني، ص54

33. سلحوت، جميل، سداسيّة محمود شقير للأطفال والبعد التربوّي، موقع محمود شقير الإلكتروني، نافذة الآراء النقدية، موقع حوار التمدن، 2018م

34. شقير، محمود، الولد الفلسطيني، ص65

35. بدوي، مرزوق، أناشيد الأطفال في الشعر الفلسطيني الحديث من سنة 1920-1948، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، 2004م، ص5

36. عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، 1997م، ص25

37. نفس المصدر، ص33.

38. جوهر، إبراهيم، مقالات في أدب محمود شقير للأطفال، 2016م، ص18

39. النقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص318

40. شقير، محمود، أنا وجمانة، رام الله، منشورات أوغاريت، الطبعة الأولى، 2000م، ص42، الموقع الرسمي للكاتب: (http://mahmoudshukair.com)

41. شقير، محمود، قراءات نقدية في أدب الأطفال، نظرة على أدب الأطفال في فلسطين، ص12،

42. شقير، محمود، التسامح وتقبل الآخر وقضايا العنف داخل المجتمع الواحد في أدب الطفل المحلي، رام الله، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، 1972م، ص20

*_*_*